

جنود العنف في المجتمع الإسلامي من عهد الراشدين إلى سقوط الأمويين

أ. بن أحمد أحمد

لقد أبغض الإسلام العصبية ودعا إلى نبذها لأنها تشكل مطية للظلم عن طريق إثارة فتن على حساب فئات أخرى، وهذا ما ينجو عنه سوء توزيع الثروة وبروز طبقة غنية تستأثر بالخيرات، وتستغل الفئات المستضعفة، وهذا يشكل أرضا خصبة لحدوث الانفجارات الشعبية والثورات وقد فسر هذا الوضع من قبل متبني العنف بسوء التطبيق للنصوص القرآنية والسنة النبوية الشريفة التي تدعو إلى العدل والمساواة بين كافة المسلمين دون تمييز وظهور بذلك تباين بين النظرية والتطبيق، وهذا جعل الكثير من الناقص على الوضع تبني المبدأ الإسلامي المشهور "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" لحل هذا الإشكال تطبيقا للحديث الشريف "من رأي منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسلمه، فإن لم يستطع فليقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

إن اتخاذ هذا المبدأ كوسيلة لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي، قد حمل إشكالا متعددة حسب الفرق ومنها الشكل الثوري العنيف الذي ظهر كعنف مضاد، وكرد فعل ضد للدولة التي اعتمدت هذه الوسيلة لحل مشكلة السلطة والحكم، لأن العنف لا يولد إلا عنفا، ولقد ساهمت الظروف في تحديد الإجراءات الأنسب لتغيير المنكر سواء كان سليما أو عنيفا وبذلك تضاربت الآراء حول الإجراءات التطبيقية لهذا المبدأ:

- فقد ذهب المعتزلة والخوارج والزيدية إلى أنه للقيام بهذا الواجب يجوز (حتى ويجب) استخدام القوة والثورة والخروج المسلح في حين مال عامة أصحاب الحديث وأهل السنة إلى قصرة على القلب واللسان فقط دون اليد ناهيك عن السيف⁽¹⁾.

ومن آراء أصحاب الحديث وأهل السنة نشير إلى رأي أحمد بن حنبل حيث يقول: "من غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه برا كان أو فاجرا، فهو أمير المؤمنين"⁽²⁾.

ويقول ابن قيمية في منهاج السنة: "أن المشهور من مذهب أهل السنة، أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتاً لهم بالسيف، وأن كان فيهم ظلم لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيلغى أعظم الفاسدين بالتزام الأدنى"⁽³⁾.

أما الإمام النووي فيقول: "وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين"⁽⁴⁾.

- وقد أجاز فريق من الفقهاء الخروج على الحاكم الظالم بشرط امتلاك القدرة على ذلك كابن حرام، وذلك لأنه يجب على المسلم إزالة المنكر، ولا طاعة في معصية، ومن قتل دون ما له أو دينه أو مظلّمته فهو شهيد⁽⁵⁾ ويضيف "القرضاوي": "اتفق فقهاء المسلمين على أن إزالة المنكر باليد تشرع لمن يملك القدرة على التغيير، وبشرط أن لا يترتب على إزالة المنكر منكر أكبر منه، فالواجب هو التغيير باللسان والقلب حسب الاستطاعة حتى تحين الفرصة"⁽⁶⁾.

- وحسب اعتقادنا فإن دعوة الفقهاء إلى عدم الخروج على الدولة الإسلامية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف التي كانت سائدة آنذاك ومنها الخطر الخارجي على الدولة الإسلامية وتوحيد صفوف المسلمين ونمّاسكهم من أجل الفتوحات وبذلك علت الأصوات الراضية للثورة علة ولاية الجور تغليبا لكفر الوحدة في مواجهة الخطر الخارجي على كفة الصراع الداخلي ضد ولاية الجور، ويضاف إلى ذلك أن الأمة لم تكن لتأثر بظلم الحاكم أو فسقه لوجود العلماء والفقهاء واستقلالهم عبر الدولة.

- ونتيجة لهذه الآراء، فقد اتجهت الخطب الدينية إلى إلقاء تبعة العنف على عاتق الفرق الإسلامية وتبرئة الدولة وإبعاد مسؤوليتها عن هذه الظاهرة، والتمست الاحذار للدولة في ممارستها للعنف على اعتبار هؤلاء الممارسين لمختلف أشكاله إنما يعلنون خطراً على أمن المجتمع الإسلامي، ولذلك حاولت الخطب الدينية إعطاء الشرعية لعنف الدولة وتشجيعها في هذا المضمار وانبرى الأئمة والخطباء للدفاع عن الدولة وعن الخلافة وتحميل مسؤولية العراقيين والأزمات إلى الفرق الإسلامية التي تبنت مبدأ الخروج عن الدولة وخصّيقين إياها بالمارقة عن الدين، وبهذا ابتعد الخطاب عن القضايا الاقتصادية والاجتماعية وإيجاد الحلول لها، وقد وقفت إسماع الحكام عن الاستجابة لصوت المعارضين، وأغلقت أبواب التغيير فاسحة المجال للعنف والعنف المضاد وبهذا يصبح اللجوء إلى العنف رد فعل على عنف تمارسه الدولة هو نموذج من ممارسة العنف المشروع وكون رد فعل على العنف القاهر⁽⁷⁾.

- وعندما تسود العصبية القبلية وتتغلغل في أوصال الدولة منه فإنها تتيح منطق احتكار السلطة وتحريمها على الآخرين وتؤدي إلى بروز العنف كخيار وحيد لحيازة السلطة ويصبح حقا لكل جماعة تطمح إلى الاستيلاء على السلطة، ويصبح عملا مشروعاً وشرعياً لعدم وجود قنوات شرعية وفعالة للمشاركة في السلطة أو تغييرها، ولتفادي هذا الوضع وإتاحة الفرصة لكل الفئات للتعبير عن آرائها بكل حرية وتبوء المناصب وفق مبدأ الشورى فقد حرص الإسلام على الحث على التآلف بين العرب وغيرهم من المسلمين دون تجن لأي جهة كانت ولبلوغ هذا الهدف فقد ارتكز على أمور ثلاثة:

1. النهي الملقى عن العصبية مهما كانت عصبية إقليم أو قبيلة أو نسب، وذلك لأن المتعصب لقومه سرعان ما يعينهم على الظلم مما يخلف العداء بين الناس.

2. إثبات الأخوة الإنسانية التي لا تفرق بين عربي وأعجمي فقد قال رسول صلى الله عليه وسلم: "كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى".

3. ولاء الموالاة الذي شرّعه الإسلام بين العرب وغير العرب⁽⁸⁾

فهل سارت الأمور كما نصت عليها تعاليم الدين الإسلامي؟ أم برزت الاختلالات من خلال التطبيق والعودة إلى أحياء الموروث الثقافي الذي كان سائدا في الجاهلية؟

علاقة العصبية بالعنف:

لقد كانت الفتوحات الإسلامية سببا في دخول العديد من الناس في الإسلام ومن بينهم الفرس، وقد دخل الكثير منهم قهرا من دفع الجزية، لأهم رأوا فيها نوعا من المنفعة لأنها لم تكن تدفع ما يقاس قبل الكبراء إضافة إلى أنها لا تدفع إلا عن قلرة وغنى، فلا تجب على امرأة، ولا صبي ولا عبد، ولا مجنون، كما أنها لا تجب على مسكين يتصدق عليه ولا على من لا قدرة له على العمر⁽⁹⁾ فما بالك إذا أسلم الذي فإنها تسقط عليه لحديث ابن عباس فرفوعا "ليس على المسلم جردية" رواه أحمد وإبو داود⁽¹⁰⁾، غير أنه الحاجة فرضت على الدولة أن تبقى أرض من أسلم على وضعها القديم (دفع الخراج) بحيث لم يطبق هذا الموالاة بنوع من الظلم سيما وإن مما جعل الصراعات القديمة تطفو من جديد (بين العرب والفرس) وقد كان هذا سببا في مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد العبد الفارسي أبي لؤلؤة النصرائي سنة 23هـ/644م⁽¹¹⁾ ويبدو أن الحقد والتعجب هو الذي أدى إلى هذه الواقعة بعد افتعال التظلم من ثقل الخراج اليومي المفروض عليه.

أسباب ودوافع الفتنة الكبرى:

لقد حاول العديد من دخلوا الدين الإسلامي الحاملين لثقافتهم الأصلية لعب دور سياسي في المجتمع الإسلامي ولم يملوا من ذلك ولم تتح لهم الفرصة إلا في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه أو ذاك تمكنوا من اختراق الصفوف وتحريك الناقمين لمناهضة ولاته، وأقربائه الذين وفروا الأسباب الموضوعية لهذه التحركات التي توجت بفتح الفتنة الكبرى في تاريخ المجتمع الإسلامي.

بمقتل الخليفة وظهور الخلاف حول الخلافة من الأحق فيما بعد الرسول صلى الله عليه وسلم - وهل تكون بالاتفاق، والائتار (بالبيعة والاستفتاء والشورى) أم بالنص والتعيين

الأسباب الاقتصادية للفتنة:

لقد استولى أقرباء الخليفة عثمان من بني أمية على السلطة ومكنهم ذلك من حوزة الثروة وتشكيل طبقة للمترفين وأصبحت الولايات التي يشرفون عليها في نظرهم مستعمرات يحق لهم العمل فيها كما يريدون وأثار هذا السلوك غضب المسلمين ولا سيما الهاشميين الذين فلتت منهم الخلافة ثلاث مرات و بذلك برزت العصبية القبلية من جديد وطفت على السطح، و نتيجة لهذا ظهرت معارضة تهدف إلى الإطاحة بالخليفة وازداد غضب الجماهير الشعبية (العبيد و الموالى وغيرهم) لما رأوه من تباين بين النصوص القرآنية والتطبيق أي بين المبادئ الإسلامية الداعية على العدل والمساواة و الواقع الأليم الذي يتضبطون فيه.

الأسباب الدينية السياسية:

لقد شكل عدم فصل الإسلام بين الدين والدولة دافعا قويا لتفجير الثورة وجمع الأنصار من مختلف الأصقاع فقد ظهر في هذه الفترة عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم زمن عثمان كمنظم ومحرك للمعارضة ضد عثمان حيث أعاب عليه وعلى أقربائه نزوعهم إلى الثروة والاستئثار بالسلطة لذلك أخذ يتصل بالمسلمين في كل الأنصار يحرضهم على الثورة.

ونتيجة ما كانوا يعاينونه من تصرفات سيئة من الولاة فقد اعتنق العديد من الناس آرائه وأفكاره مما أفضى مضاجع الطبقة المترفة التي تشكلت في ظل الخلافة وأدت في آخر المطاف إلى الثورة على الخليفة وقتله.

وقد كان يكفي لمعالجة الوضع تبني المطالب لشعبية التي يؤكدها الدين الإسلامي الشيء الذي لم يتم بين الأطراف مما كان له انعكاسات خطيرة على الخلافة فيما بعد حيث استهجنتم قديميتها ولم تعد لها تلك الحالة التي كانت تتمتعها سابقا ولعبت هذه الفتنة دورا كبيرا في تاريخ المجتمع الإسلامي حيث مزقته و لعبت السيوف

بلورها دورا رئيسيا في كل الخلافات بين المسلمين و لا سيما بين الفرق و الخلافة الإسلامية سواء الأموية أو العباسية وفي هذا المجال يقول الشهرستاني: "ما سل سيف في الإسلام على قاعلة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان ومكان"⁽¹²⁾.

الصراع على الخلافة:

لقد وقع الخلاف بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ودارت بينهما حروب طاحنة في أكثر من واقعة، وقد استمال علي الفرس بعد له والتسوية بينهم وبين العرب في الأعطية وفي مختلف مناجي الحياة وقد هجن العصية العربية وعطف على العجم حتى أنه انتزع أملاكا كان عثمان أقطعها جماعة من المسلمين⁽¹³⁾ وبهذا انضم الفرس إلى جيشه وابلوا البلاء الحسن غير أن انقسام معسكره إلى شيعة وخوارج بعد حادثة التحكيم حال دون الانتصار.

لشيعه:

لقد اعتمد علي الشيعة سينهضهم لمحاربة الجهتين: جبهة معاوية والخوارج، فقاموا بقتال الخوارج لخطورتهم غير أنهم ترددوا رقبه ودب فيهم الوهن بفعل وقوعهم بين معسكرين قويين، وتبعاً لذلك تمكن الخارجي بن ملحجم منه فقتله، وقد اقتنع الشيعة بأن الخلافة قد اغتصبت من علي فكفروا بابا بكر وعمر وعثمان واعتقدوا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أوصى بالخلافة لعلي.

وتمقتل الحسين رضي الله تعالى عنه أدرك الشيعة أنه لابد لهم من سلاح مذهبي يضاف إلى مناهضتهم السياسية حتى يدخلوا في صراع حاسم ضد الأمويين.

الخوارج:

اعتبر الخوارج أن الأطراف المتنازعة كلهم مخطئين (علي ومعاوية وعثمان، وعائشة وطلحة والزبير وعمر بن العاص وأبو موسى الأشعري وكل من رضي بالتحكم) فحكموا بكفرهم كفر شرك وظل هذا شأنهم إلى أن وقع الاختراق على يد نافع بن الأزرق سنة 64هـ/683م⁽¹⁵⁾ اثر مقتل الحسين بثلاث سنوات، وقد أظهر هذا الحدث عنف الدول الأموية حيث استخدمت مع معارضها كل أنواع التقتيل والترويع وشكل هذا الاختراق بداية لحركات ثورية عنيفة ضد قمع الأمويين حيث قام نافع بثورته من أجل تكوين دولة خارجية تنازع الدولة الأموية، وقد التحق بهذه الثورة كثير من العبيد والموالي حيث حررهم وخفف عنهم الضرائب وكان جل من انضم إليه من الطبقات الشعبية حاربوا الزبيريين والأمويين في فترة امتدت من سنة 683 إلى 697م.

الحركات الثورية في العهد الأموي:

لقد استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان لتبوء منصب خليفة المسلمين وبذلك أصبحت وراثية وقد بني حكمه على أسس عربية واتخذ العصبية وسيلة لتقلد المناصب الحكومية واستثنى من ذلك كل من لم يكن عربياً، وزاد في ازدهاره حيث استهجن الموالي والعبيد، وقسم الغنائم على أقربائه وعلى الجماعة التي تحلقت حوله، ولم يعط الموالي حقهم الكامل في الإسلام الذي أراده عربياً ولم يفهم بأن الإسلام جاء لكافة الناس وأن الغنيمة يجب أن توزع توزيعاً عادلاً ظلماً في حقهم وأن حقهم قد أغتصب وأن هناك سوء تطبيق للكتاب والسنة وهذا ما دفعهم إلى الانضمام إلى الحركات الثورية القائمة آنذاك:

حركة التوابع:

إضافة إلى الخوارج الذين كانوا متواجدين في العهد الأموي والذين خاضوا معارك طاحنة ضد الأمويين في نفس الوقت ظهرت حركة التوابع وهي فرقة من الشيعة ندمت على مقتل الحسين من قبل يزيد بن معاوية وتحاذتهم عنه وعن أبيه سابقاً وأرادت أن تكفر عن الذنب بإعلان الثورة على الأمويين منذ 65 هـ/684م غير إنها أجهضت وقتل قائدهم سليمان بن صود.

ثورة المختار الثقفي:

لقد عنى العبيد والموالي من اضطهاد بني أمية وتعسفهم، و أشرأت نفوسهم وتاقت طموحاتهم إلى تغيير هذا الوضع المزري، وقد وجلوا ضالتهم في الثورة التي أعلنها المختار الثقفي الشيعي ضد الزبيريين والأمويين، فقادهم إلى محاربة العرب (الأشراف) الذين استأثروا بكل المكاسب مستغلاً وضعية الطبقة الشعبية و ما عانت من جهانة. وخيبة أمل وقتل آل البيت ملوحتهم بالحرية والمساواة في ظل حكم انتقاماً للفرس واشفاءً لجليهم وقد انتصر على عبد الله بن زياد وإلى عبد الملك بن مروان واستفحل أسره على عبيد الله بن زياد وإلى عبد الملك بن مروان واستفحل أسره إلى أن قتله مصعب بن الزبير وقد كانت مبادئ، هذه الثورة من بين الأسباب التي أدت على تحطيم الدولة الأموية على أبي مسلم الخراساني وإقامة الدولة العباسية.

ثورة الزيدية:

لقد رفع زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم نفس الشعارات التي رفعها قبله المختار الثقافي ودعا الموالي إلى جهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرّمين حقهم وضمان العيش الكريم وقسمة الفياء في أهله ونصرة آل البيت⁽¹⁶⁾ وهذا ما جعل الكثير ينضمون إليه في ثورته سنة 122 هـ/740م وقد

حدد موقفه من السلطة بما وقع آل البيت وشيعتهم في صراعهم الدامي (تسميم الحسن من قبل محاولة وقتل الحسين من قبل ابنه يزيد) وقد إزداد الأمر تعقيدا وسواء في عهد هشام بن عبد المالك حيث اتسعت الفجوة بين المستضعفين والطبقة الحاكمة إذ استولي هشام على أرزاق الفقراء واغتصبها وسفك دماء المناهضين، وكان لهذا الوضع أثر في اعتناق مبدأ الخروج الذي أقره الخوارج. وفي هذا العهد كثرت القلاقل والثورات في المغرب والشرق وقد أتهم زيد بظلم الأمويين وسفك دماء آل البيت وتعصمهم على المولى وأكد ذلك في قوله: "خرجت على بني أمية الذين قتلوا جدي الحسن وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار" (17) ولذلك لم يتخل عن مقاومة الظلم والثورة على الطغيان تطبيقا لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث يقول: "والله كنت استحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن أرد عليه الحوض غدا ولم أمر بمعروف في أمته ولم أنه عن منكر" (18) وعلى الرغم من الشيعة بايعوه إلا أنهم انقسموا عليه نتيجة عدم تكفيره للخليفين أبي بكر وعمر فتكونت بذلك ثلاثة فرق (الإمامية، الرافضة، الزيدية) وبقيت معه قلة قليلة تحارب وخاضت حرب ضارية ضد الأمويين كانت نتيجة قتل وإرسال رأسه إلى الخليفة بدمشق وقد عجلت هذه الأحداث بسقوط الدولة الأموية وانتقال الخلافة إلى بني العباس بعد عشرة سنوات من هذه الواقعة أي في سنة 132هـ.

وخلاصة القول فإن العنف والشراسة التي اتسمت بهما الفرق الإسلامية المتبينة للثورة إنما يعد رد فعل أو عنف مضاد على عنف الدولة التي لم تعط المناهضين أي فرصة للمشاركة في السلطة أو تغييرها بل عملت على تقييدهم وتشريدهم من ما حدا بالمعرضين إلى تبني وسيلة التغيير المنكر باليد أي اعتماد مبدأ الخروج على الدولة وبذلك بزغت بنور الشقاق والخلاف في المجتمع الإسلامي سيما بعد طفو العصبية واتخاذها كوسيلة للحكم وما نجم عن ذلك من سوء تدبير للحكم أضر بالطبقات الفقيرة وجعلها تبحث عن سبب ذلك فوجدته في سوء تطبيق النصوص الدينية ثم بحثت عن الحلول فوجدتها في تطبيق المبدأ الإسلامي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المعالجة هذا الخلل وبذلك برزت جنور العنف في المجتمع الإسلامي.

الهوامش:

- 1- أرثور سعيديف وتوفيق سلوم، الفلسفة العربية الإسلامية- الكلام لمشائية والتصوف، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار للطباعة الثانية، 2001 ص 33.
- 2- محمد السعدي العنف السياسي في الحركات الإسلامية المعاصرة، مجلة رسالة الجهاد ص 153.
- 3- نفس المرجع ص 154.
- 4- نفس المرجع نفس الصفحة
- 5- وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، الجزء 6، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1985 ص 79.
- 6- يوسف القرضاوي، الحل الإسلامي، فريضة وضرورة، مكتبة وهبة، القاهرة الطبعة الثالثة 1977، ص 159.
- 7- حس حنفي الأصولية الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص 362.
- 8- محمد أبو زهرة الوحدة الإسلامية دار الفكر العربي القاهرة ص 113.
- 9- السيد سابق فقه السنة المجلد الثاني دار الكتاب العربي بيروت لبنان الطبعة الثالثة 1977 ص 666.
- 10- نفس المرجع ص 668.
- 11- علي الشاذلي مباحث في علم الكلام و الفلسفة دار بوسلامة للطباعة و النشر والتوزيع تونس الطبعة الثانية بدون تاريخ ص 69.
- 12- نفس المرجع ص 50.
- 13- نفس المرجع ص 72.
- 14- أبو الفرج الاصفهاني مقاتل الطالبين القاهرة 1956 ص 135.
- 15- علي الشاذلي مرجع سابق ص 115.
- 16- المرجع السابق ص 116.
- 17- المرجع نفسه ص 114.
- 18- المرجع نفسه ص 115.